نظرية حق الام او فلسفة التاريخ عند باخوفن

الدكتور ابراهيم محمد علي الحيدري
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

١ ـ منهج باخوفن :

يتضح لنا منهج باخوفن Bachofen [١] العلمي من خلال بحثه التطبيقي وتحليله للمعلومات التاريخية والاثنوغرافية الوافية التي جمعها عن العالم القديم[٢] خصوصا من نصوص هيرودوت عن قبائل الليكير Lykier التي عاشت في اسيا الصغرى في فترة ما قبل الحضارات الهيلينية ، حيث كان الافراد ينتسبون فيها في خط الام Matrilinearität فقط وليس في خط الاب Patrilinearität كما هو معروف اليوم[٣] هذه المعلومات التاريخية والاثنواغرافية كانت تتضمن وصفا اثنوغرافيا لتلك الشعوب والاقوام وتحقيقا لمصادرها التاريخية . وقد وضع باخوفن في تحليله لهذه المعلومات ثلاثة متطلبات هي :

---

(١) يوهان ياكوب باخوفن (١٨١٥ ـ ١٨٨٧) محام سويسري ومؤرخ في علم الاديان المقارن . اشتهر في كتابه حق الام Mutterrecht الذي صدر في بازل عام ١٨٦١ الى جانب كتب اخرى حول الدين والاساطير والرموز .

(٢) انظر
Bachofen, J. J., Der Mythos von orient und okzident, hesg.: Von M. Schröter, s.1, Basil, 1926

(٣) انظر
Thomson, G., Frühgeschichte Grichenland und der Ägäis, Bd. I, Berlin 1969, S. 121

أ ـ موضوع الملاحظة : فعلى الباحث ان يتقبل الافكار الغريبة بدل ان يضع افكاره مكانها • ويعني بذلك ان لا يتحيز او يحتقر الباحث الافكار الغريبة عنه وينتقدها ، بل ان يأخذها كما هي ثم يتعرف على خصائصها •

ب ـ موضوع الاختبار : فعلى الباحث ان يختبر الاخبار التاريخية غير الصحيحة والغريبة ، لان وجود اي خبر تاريخي ، لا يهمل بعدم صدقه او خطئه المنطقي •

ج ـ موضوع الجزء والكل : فعلى الباحث ان يدرس اجزاء البحث ضمن مجمل الموضوع[٤] •

يبحث باخوفن موضوع الاباحية الجنسية Gynaikokratie في العالم القديم• وهي مرحلة تاريخية قديمة وغامضة من تاريخ الانسانية لم تحدد بعد• وان الوسائل التي استعملها باخوفن في بحثه هي ليست مصادر ذات اهمية كبيرة فقط ، مثل كتب العالم القديم الكلاسيكية كمؤلفات هيرودوت ، وانما ايضا كتب الرحالة والنقوش والوثائق الاثرية القديمة •

والى جانب هذه الوسائل الاساسية يستند باخوفن على الأساطير Mythen والرموز Symbole حيث جمع عددا كبيرا من الأساطير الشعبية والرموز المنقوشة على جدران المقابر والاثار القديمة • والأساطير بالنسبة لباخوفن ليست اقل غنى من المصادر الاساسية ، لانها تستطيع ان تقوي الاسانيد التاريخية وتعرفها بصورة ادق • الاساطير المنقولة تبدو له صورة امينة تعكس نظام الحياة لتلك العصور القديمة وتطورها التاريخي والحضاري باعتبارها بيانا لنمط التفكير الاصيل ، ووسيلة تاريخية موحاة يمكن الاعتماد عليها • ان اهمية الاساطير في منهج باخوفن تظهر بوضوح في دراسته للتاريخ حيث يجد المرء اوضاعا تفترض مقدما وجود مراحل تاريخية ، فليس هناك بداية ، وانما هناك نهاية ، وليس هناك علة ، وانما هناك المعلول

---

(٤) انظر Bachofen, J. J., Das Mutterrecht, S. 155, Basil, 1948

التابع • وان المعرفة العلمية الحقيقية هي ليست في الجواب على سؤال ماذا ؟ فالكمال يبدأ حين يكتشف المرء من اين ؟ والى اين ؟

ولفهم ذلك يجب علينا اولا ان نحاول معرفة الاصل والطريق ثم النهاية • وان بداية اي تطور يقع في الأساطير ، لان اي بحث علمي متعمق للعالم القديم يجب ان لا يستغني عن الأساطير ، ومن دون معرفة الاصل لا يمكن ان تصل المعرفة العلمية الى نهايتها • وان اي فصل بين التارخ والأساطير ، خصوصا الاختلاف في اسلوب العرض التاريخي للحوادث ، لا يعطينا توضحيا كاملا للحقائق التاريخية(٥) •

وبجانب الأساطير تقف الرموز في موقع ذي قيمة كبرى ، لان اهمية الرموز في حضارة حق الام لها موقع بارز ، خصوصا في رموز القبور في العالم القديم • فالرموز ومعانيها الأسطورية التي نجدها على القبور هي بمثابة اللغة والكتابة لتلك الشعوب • ان لغة الانسان فقيرة في ملأ المعاني حول تبدل الحياة وتغيرها من الحياة الى الموت • والرموز بهذا المعنى تستطيع ايقاظ المعاني ، اما اللغة فتستطيع توضيحها فقط • الرموز توضح كل جوانب الحياة الفكرية للانسان ، بينما اللغة ضرورية في توضيح فكرة ما • الرموز فقط هي التي تستطيع ان تربط مختلف المعاني في وحدة متكاملة وتخدم كل وسائل التعبير عن كل الظواهر في العالم القديم • الاساطير هي الشيء العضوي اما الرموز فهي لغتها المعبرة(٦) •

---

(٥) انظر
Bachofen, J. J., Versuch über die Gräber der Alten Urreligion und antike Symbole, S. 48. Bernoulli, 1952.

(٦) Ibid, S. 48.

وبالرغم من هذه الاهمية الفائقة لمعنى الاساطير والرموز في منهج باخوفن ، فعلى المرء ان لا ينسى بانها تكون فقط مواد ومصادر البحث حول مرحلة الاباحية الجنسية في العالم القديم • والمهم هنا ليس الاساطير والرموز نفسها كنواة ومضمون ، وانما باعتبارها وسيلة جيدة تخدم معرفة وتفسير الاخبار والحوادث التاريخية[٧] •

٢ ـ فلسفة التاريخ :

تعكس فلسفة التاريخ عند باخوفن افكاره حول نظرية التطور ومراحل التطور التاريخي والاجتماعي ، خصوصا المرحلة الاولى للانسانية • ان فكرة ومحتوى التطور التاريخي هو الصراع الدائم بين المادة والفكر ، بين الظلمة والنور ، بين السماء والارض ، وبين الذكر والانثى ، ثم انتصار الفكر كمبدأ للنور على المادة ، اي انتصار الذكر على الانثى[٨] •

في البداية كانت هناك المادة ، رمز لفكرة الام وهناك قانون عام يتحكم في تطور الجنس البشري هو التقدم من المادة الى ما فوق المادة ، من الطبيعي الى ما وراء الطبيعي ، من المادة الخام الى الفكر • وما يبدأ خاما ينتهي الى غير الخام • ومحتوى التطور الانساني عند باخوفن هو خلاص الفكر من المادة ، من ظواهر الطبيعة ، وارتفاع الوجود الانساني على قانون الحياة المادي[٩] • وان واجب الانسانية كما يقول باخوفن هو « الانتصار اكثر فاكثر على مبدأ المادة ، اي على الجوانب المادية من الطبيعة والتي لها علاقة بعالم الحيوان ، والارتفاع بها الى مستوى الوجود الانساني »[١٠] وهناك تشابه بين المادة والطبيعة ، ومعنى ذلك ، ان واجب الانسانية هو الحرب ضد الطبيعة وضد مبدأها وهو الانثى[١١] •

---

(٧) انظر Schmidt, G., Geschichtsphilosophie, S. 2, o.O., 1929

(٨) انظر Philosophisches Wörterbuch, Kröner, S. 47, Stuttgart, 1926

(٩) Bachofen, Das Mutterrecht, S. XXVII a

(١٠) Ibid, S. 139 a

(١١) Ibid, S. 139 a

٣ ـ هل الأنثى هي الأصل ؟ :

وهنا يبدو السؤال واضحا حول العلاقة بين الجنسين كمبدأ اساسي في فلسلفة التاريخ عند باخوفن .

يعرض باخوفن انواعا ثلاثة لمراحل الصراع بين الجنسين حول السلطة وهـي :

١ ـ مرحلة سلطة الام (الطبيعية) او مرحلة الأباحية الجنسية
Die hetärische Gynaikokratie (١٢)

٢ ـ مرحلة سلطة الام (الروحية) او مرحلة النظام الاموي ـ الانتساب في خط الام Die ehelische Gynaikokratie

٣ ـ مرحلة سلطة الاب (الفكرية او الواقعية) او مرحلة النظام الابوي ـ الانتساب في خط الاب . Die Patrinität

بهذه المراحل الثلاثة يكتمل التطور الانساني . المرحلة الاولى والثانية تكمل كل منهما الاخرى ، تماما مثل الظواهر الطبيعية ، في حين ان المرحلة الثالثة تكاد تعلو عليهما . وان اعلى مرحلة من مراحل التطور الجنسي البشري، في رأي باخوفن ، هي ارتفاع مبدأ الاب الألهي على الوضع الطبيعي . والصعوبة التي تجابه الانسانية في كل العصور ، وتحت سيطرة كل الاديان ، هي التخلص من ثقل المادة الطبيعية ، وهو هدف الانسانية ، واعلى مرحلة من مراحل التطور الفكري(١٣) .

---

(١٢) يشير الاغريق الى اصطلاح Hetärismus الى الاتصال الجنسي بين الرجال غير المتزوجين او المتزوجين بزوجة واحدة Einzelehe مع عدة نساء غير متزوجات ، والذي يعرض نوعا معينا من العلاقات الجنسية خارج حدود الزواج. ومن الممكن ان نربط هذا النوع من العلاقات الجنسية بالبغاء الذي كان شائعا في اليونان القديمة ، ومن جهة اخرى فان هذا الاصطلاح لم يستعمل الا بما اشار اليه باخوفن وموروجان في بحثه عن الزواج الجماعي عند الاروكيزن .

(١٣) انظـر Bachofen, Das Mutterrecht, S. XXXII a

وبأختصار فان باخوفن يعتقد بأن مرحلة حق الام قد تلاشت وان مبدأ حق الام في الماضي والحاضر ما هو الا نكوص في سلم التطور ويجب محاربته • يسير التاريخ عند باخوفن بشكل دائري ، اي ان التاريخ يعيد نفسه ، لان التاريخ يؤكد لنا مرارا ، بان الاوضاع السابقة تظهر ثانية في نهاية التطور ، وفكرة التقدم والنكوص تعكس بداية ونهاية تاريخ الانسانية ، وان القانون العام للتطور لا يسير الى الامام ونحو هدف معين ، اي حسب خط مسيرة التاريخ الديني المستقيم وانما الى الوراء ايضا ، عبر العلاقة الوثيقة بين العلّة والمعلول(١٤) •

٤ ـ الفوضى وسلطة المادة المطلقة :

يبدأ التطور التاريخي عند باخوفن في مرحلة الفوضى Urchaos وفي هذه المرحلة كان الانسان قد خلق عن طريق الولادة من الام الأصل ، ومن دون مزيج جسدي ، ويعني ذلك ان الام الاصل هي التي اوجدت الجنس البشري(١٥) • وبالنسبة لباخوفن فأن ذلك الزمن هو زمن سلطة المادة المطلقة•

وقد نعت باخوفن الفترة التي اعقبتها « بمادة الأرض الخام » Der chtonische Tellurismus وفي الزمن القديم كانت المادة قد تضمنت قوة الفكر ، باعتبارها جزءا منها ، ويمكن ان ينظر الى العلاقة بين المادة والفكر بصورة الارض والماء ، فالارض تستقبل قوة الماء الخالقة بصورة شهوانية غير مرئية ، فتخلق الاحياء لتسترجعهم اليها ثانية عند الموت، وهذا ما اوحى للانسان القوة في استغلال نباتات الدلتا والوديان الغنية ، عالم النبات الممرع ، في سفوح النيل الخضراء ، وارض مصر اليانعة • وهكذا قدس الانسان ، كأعلى سلطة ، مادة الارض الخام ، وكيّف حياته على صورتها • لم تقلد الارض الانثى ، بل قلدت الانثى الارض • الانثى هي صورة وخليفة للام الاصل ، الارض • ولهذا اصبحت الام مقدسة مثل الارض ، باعتبارها الاولى ،

---

(١٤) انظر Ibid, S. XVIII a

(١٥) Ibid, S. 165 a

المعطاء ، وهي في الاخير قد تسللت من الرجل الذي تكّون منها • ومثل الارض ، المادة التي تشتهي الولادة ابدا ، تشتهي الانثى الخلق • وللانثى انتج الدين ، واجب العطاء في الولادة[١٦] •

ان اقدم نظام انساني في سلم التطور التاريخي هو نظام الأباحية الجنسية ، الذي ساد في الوقت الذي لم يكن هناك عائلة ولا نظام للابوة ، ولم يكن هناك سوى الانثى •

تعاصر الأباحية الجنسية عصر الملكية الجماعية وحق المساواة لكل الناس• ولا يعني ذلك في رأي باخوفن أن شروط الحياة الاقتصادية هي العامل الحاسم في تكوين نظام حق الام • فالعامل الحاسم في نظر باخوفن ، وفي كل الحضارات هو الدين[١٧] •

٥ ــ التحول من سلطة المادة المطلقة الى المادة الخام :

أي التحول من نظام الاباحية الجنسية الى نظام الزواج • وهي المرحلة الثانية ، فترة المادة الخام القمرية ــ نسبة الى القمر ــ التي ترتبط بنظام ديني يحدد العلاقات الجنسية في الزواج ، وهي فترة حق الام بالمعنى الخاص ــ نظام الانتساب في خط الام ــ وهنا تقترب الحقيقة الطبيعية ، حيث تنسحب في هذه الفترة القوة الخالقة لفكرة الرجل ، الى القمر • ففي الوسط ، بين الاثنين ، يقف القمر ، كحد فاصل بين منطقة المادة ومنطقة الفكر ، بين جسم المادة النقي وغير النقي • وليس هناك تبدل في هذا العالم المحكوم عليه[١٨] •

---

(١٦) Ibid, S. 330 a

(١٧) انظر
Sillnow, J. Grundprinzipien einer Periodisirung der Urgeschichte, S. 40, Berlin 1961

(١٨) انظر Bachofen, Das Mutterrecht, S. 22 b

ونتيجة لطبيعة القمر المزدوجة تكون السيطرة للمادة الانثى ، وتظهر ام الطبيعة الكبيرة ، كأرض وقمر • ويقدم القمر في الخط الأول • ك ديا ـ لونـا[١٩] • Dea-Luna ، وفي الخط الثاني يقدم القمر ك ديوس ـ لونوس Deus-Lunus [٢٠] •

والقمر هو في نفس الوقت لونا ولونوس ، انثى مقابل الشمس ، وذكرا مقابل الأرض • ويقف القمر في المرتبة الثانية ، لان القمر انثى اولا ومن ثـم ذكر • والاخصاب الذي يتلقاه القمر من الشمس ، ينقله بدوره الى الارض ، فهو يتضمن اذن مجموع الكون Weltalls ويعكس الحيـــاة والموت • ومن خلال هذه الازدواجية يتطابق اذن مع نظام العلاقات الجنسية في فترة الاباحية الجنسية ، لانه اولا انثى ثم ذكر • وهنا يرتفع مبدأ الانوثة عـلى الذكورة الى السلطة ، وبمعنى آخر فان في فترة الاباحية الجنسية يسيطر الليل على النهار ، الذي ولد منه ، مثلما تسيطر الام على الولد • وفي مبدأ الابوة يسيطر النهار على الليل[٢١] •

وفي مقطع آخر يصور باخوفن طبيعة القمر الازدواجية بصورة اوضح حيث يقول : «ان قوة الخصب القمرية ليست اصيلة فيه ، انما تحولت اليه من الشمس ، لان شعاع الشمس الازلي يتوزع على كل الاجسام الواطئة ، بينما تذهب الشمس بنفسها الى القمر وتبقى هناك مع المادة المستقبلة ، مثلما حدث في مصر في زواج ازيز بأزوريس[٢٢] • وتصبح الشمس بهذا اباً للقمر وديوس ـ لونوس بنفس الوقت »[٢٣] •

---

(١٩) Ibid, S. 1108.

(٢٠) ديا ـ لونا : الهة القمر ، اسم يوناني شاعري للقمر . ديوس لونوس : الهة الشمس ، اسم يوناني شاعري للشمس .

(٢١) Bachofen, Das Mutterrecht, S. 22 b — 23 a

(٢٢) اسطورة مصرية تصور زواج ازيز آلهة السماء ، بازوريس آله الدلتا .

(٢٣) انظـر Bachofen, Das Muttenrrecht, S. 23 a

يحيط شعاع الشمس مادة القمر وبهذا يكتسب طبيعة الارض ، وتصبح الشمس غير جسدية واعلى درجة من النقاوة • وعن طريق امتزاجها بالقمر تأخذ طبيعة الجسم المادي وتفقد بذلك توهجها وتنسكها[٢٤] وللحفاظ على الحياة املى الجنس الانثوي طبيعته ، ومن تأسيس وتجميل الحياة على الارض ارتبط الوجود الانساني وتجميل الحضارات[٢٥] •

ومن خلال الأساطير يوضح لنا باخوفن ، بان المرأة قد استطاعت الوصول الى السلطة عن طريق المكر والخداع فقط ، كما في قبائل الليكيير في اسيا الصغرى • ويصبح الرجل قضيبا فقط ، كما في اسطورة شترابو ، « الرجل الذي ينظر من زاوية عينيه »[٢٦] •

ان سيطرة المرأة على الرجل والاطفال ، في وضع طبيعي يسود فيه الخلط الجنسي الحر ، غير ممكن ، وكذلك ارث الام والانتساب اليها لا يكون ذو معنى الا عن طريق الزواج • واذا كان النساء والاطفال يعيشون جماعيا ، فأن الملكية ستكون بالضرورة جماعية ايضا[٢٧] •

ان موضوع حق الام الذي رسمه باخوفن هو صحيح تاريخيا ، فأن حق الام يكون في الحقيقة فقط من خلال انتساب الاطفال الى امهم وهو حق طبيعي ومشروع • وفي هذا الظرف الطبيعي فان الخلط الجنسي ليس غريبا وهو قديم قدم الجنس الانساني الذي ربط حق الام بالأباحية الجنسية ، وهو الذي سلم السلطة في العائلة والمجتمع في يد الام[٢٨] • اما الاسلحة التي استعملتها الانثى في صراعها مع الرجل فهي في نظر باخوفن : حنان الام والقوة الدينية العالية التي تمتلكها والاحترام لها[٢٩] • وهناك سيل عارم من الحقائق التاريخية

---

(٢٤) Ibid, S. 38 b

(٢٥) Ibid, S. XX VI a

(٢٦) Ibid, S. 109 — 110

(٢٧) Ibid, S. 18 b

(٢٨) Ibid, S. 18 a

(٢٩) Ibid, S. 1109

والاثنوغرافية التي تصور حضارة حق الام بصورة عامة وتغنيها بانواع من الصور لمعرفة الشعوب المختلفة التي ساد فيها مبدأ حق الأم • وكان اكتشاف الزراعة من قبل المرأة خطوة تقدمية في تاريخ الانسانية ، فالزراعة كما يقول باخوفن « قامت على اكتاف الشعوب الاموية»[٣٠] وقد رافق هذا التقدم الحضاري تحول في شكل العلاقات الجنسية ، لان هناك قانون عام ينظم الزراعة والزواج[٣١] • الزراعة طابع الحياة الزوجية ، فالارض لا تقلد الانثى، بل الانثى تقلد الارض ، والزواج يعتبر منذ الازمنة القديمة علاقة زراعية بين الام والاب[٣٢] الا انه ليس للاب من اهمية سوى كونه يضع البذور في شقوق الارض ثم يختفي[٣٣] • ومبدأ الزراعة ينعكس في الأساس في السنابل والحبوب وهو الذي رفع الام الى رمز مقدس[٣٤] •

٦ ـ النظام الشمس او نظام الكون الابوي : Der Solarismus

ان التطور من فكرة امومة الانسانية الى ابوتها يكون اهم نقطة في تاريخ العلاقات الجنسية • انها مرحلة تبدل فيها نظام الكون نفسه تبدلا كاملا• وان ارتفاع نظام الابوة على نظام الامومة لم يكن سوى نتيجة لانفصال الفكر عن الظواهر الطبيعية المادية وانتصار قانون الوجود الانساني على قانون الحياة المادي[٣٥] • وقد برهن انتصار نظام الأبوة على نظام الاباحية الجنسية باحتلاله مكانه الصحيح في سلسلة التطور الانساني • ان هذا التحول من حق الام الى حق الأب له علاقة وثيقة بتطور النظم الدينية ، وهو تطور من عالم المادة الى عالم الفكر ، من الطبيعي الى ماوراء الطبيعي • اما القوة المحركة لهذا

---

(٣٠) Ibid, S. 142 b

(٣١) انظر Sellnow, S. 40

(٣٢) Bachofen, Das Mutterrecht, S. 142 b

(٣٣) Ibid, S. 6 a

(٣٤) Ibid, S. XXO

(٣٥) Ibid, S. XX II a

التطور في رأي باخوفن فهي الدين[٣٦] • وان من خصائص كل مرحلة حضارية اشكال دينية معينة ، مثل عبادة القمر Demeter Kult في فترة حق الام وعبادة الشمس Sonnen Kult في فترة حق الاب[٣٧] • « الانسان يكسر عصابة المادة الخام ويرتفع بذلك على المادة الاصل»[٣٨] والجنس البشري يرفع نفسه « من اعماق الوحل القذرة والوجود الحيواني الى حياة منظمة سهلة والى حياة مضاءة فكريا »[٣٩] وقد حضى نظام الابوة بذلك الشرف حيث استطاع ان يصل الى الهدف وهو القضاء على الفقر والالم لمرحلة الدين القديمة وتأسيس حضارة جديدة عالية • ومن تحطيم نظام الاباحية الجنسية وانتصار نظام الابوة كان خلاص الانسانية وتأسيس وجود نبيل متسامي[٤٠] •

ان خروج الانسان ــ في نظام الابوة ــ من انسجامه مع الكون والطبيعة هو في نظر باخوفن اثم وشؤم ، الا انه اثم وشؤم لا خلاص منه ، وطريق لابد منه للتقدم ، ذلك التقدم الذي يوصلنا الى معرفة حقائق الاشياء بدل الانخداع فيها • ان عالم الحس عند باخوفن هو خداع وكذب • اما الحقيقة فتوجد فقط في عالم الفكر • وحق الام يبقى في عالم الحيوان ، اما العائلة الانسانية فتنتقل الى حق الاب[٤١] •

٧ ــ نقد النظرية :

في الوقت الذي نشر فيه باخوفن كتابه حق الام عام ١٨٦١ كانت قد ظهرت عدة كتب تعتبر من امهات الكتب النظرية في الاثنولوجيا الاجتماعية • ففي نفس السنة ظهر كتاب هنري مين (١٨٢٢ ــ ١٨٨٨) H. Maine الموسوم بالقانون القديم Ancient Law وذهب فيه الى ان العائلة

---

(٣٦) Ibid, S. 54

(٣٧) انظر Sellnow, S. 40

(٣٨) انظـر Bachofen, Das Mutterrecht, S. XXV II b

(٣٩) Ibid, S. XXX II a

(٤٠) Ibid, S. 146 b

(٤١) Ibid, S. XX VII b

الابوية الكبيرة هي الشكل الاصلي للحياة الاجتماعية وان السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها رئيس العائلة كانت هي السبب في ظهور نظام الانتساب الى الاجداد في خط الذكور فقط • وفي سنة ١٩٦٥ ظهر كتاب ماكلينان (١٨٢٧ — ١٨٨١) J.F. Mclennan الموسوم بالزواج البدائي Primitive Marrige وذهب فيه الى ان الانسان الاول كان يحيا حياة اباحية طليقة على الرغم من انه كان يعيش في جماعات طوطمية صغيرة تقوم على اساس القرابة الاموية وتنتشر بينها عداوات الدم وتتبع نظام الزواج الخارجي Exogamie نتيجة لعادة وأد البنات التي اضطرت الرجال الى التزوج من قبائل اخرى ، ثم لم تلبث هذه الجماعات ان انتقلت الى مرحلة تعدد الازواج Polyandrie بالنسبة للمرأة الواحدة ، ومنها الى نظام الانتساب الى الاب • وقد تأثر بهذه النظريات عالم اسكتلندي آخر هو وليم روبرستون سمث (١٨٤٦ — ١٨٩٤) W.R. Smith الذي طبق هذه النظريات على الوثائق القديمة المتصلة بتاريخ العرب القدماء في كتابه العائلة والزواج في البلاد العربيةالقديمة[٤٢] • Kinship and Marriage in Erly Arabia

وقد تطرق انجلز في كتابه اصل العائلة الى نظرية باخوفن واعتبر بدأ تاريخ العائلة هو عام ١٨٦١ وهو عام ظهور كتاب حق الام لباخوفن ، الذي ادعى فيه بان البشرية كانت قد عاشت في اول مراحلها التاريخية في علاقات جنسية غير مقيدة ، وقد اعطى باخوفن لهذه العلاقات الجنسية اصطلاحا غير موفقا هو « الاباحة الجنسية » Hetärismns حيث انتفى فيه بالتاكيد دور واهمية الاب في العائلة ، ولذلك اصبح النسب في خط الام وذلك لدورها واهميتها في العائلة والمجتمع • هذا الشكل من العلاقات الجنسية هو الاصل عند كل الشعوب في العالم القديم • وعلى هذا الاساس فان الاناث ، الامهات ، هن الوحيدات اللواتي كن « ربات العائلة » اللواتي حصلن على الاحترام

---

(٤٢) انظر
Evans-pritchard: Social Arthropology, S. 29, London 1951

والتقدير • ان هذا التصور هو الذي رفع الانثى الى سلطة الام Gynaikokratie وان التحول من نظام الاباحية الجنسية الى نظام الزواج الاحادي Einzelehe, Monogamie اي الزواج بأمرأة واحدة هو خروج او خرق للنظام الديني القديم Uraltreligion الذي ندم عليه الانسان واوجب على المرأة ان تقدم ثمنا له •• ولم يكن ما قدمه باخوفن كان واضحا ، الا انه استطاع ان يبرهن على ما جاء به ، وهذا يعني في عام ١٨٦١ « ثورة كاملة »(٤٣) •

واذا كان باخوفن يعتبر مكتشف نظرية حق الام ، فان ليفتياو Lafitau وهو يسوعي فرنسي درس قبائل الاروكيزن والهورونن وجمع معلومات قيمة حولهم ووضع دراسة مقارنة بين العادات والتقاليد الشائعة للامريكان Moeurs des Sauvages Ameriquains الذي صدر في باريس عام ١٧٢٤ ، قد توصل بدراسته المقارنة هذه الى الاتفاق مع نصوص هيرودوت حول انتساب هذه الشعوب في خط الام • وقد جمع ليفيتاو نصوصا اخرى من المؤرخين الكلاسيكين مثل هيراكليدس وبونتيكوس ونيلوكوس ودمسكوس تربط بين الانتساب الى الام والنظام الاجتماعي الذي يعطي السلطة في يد الام(٤٤) • وبالرغم من هذا التشابه الكبير بين باخوفن وليفيتاو في الوصول الى نفس النتائج ، فان ليفيتاو كان اكثر نقدا لمبدأ حق الام(٤٥) •

والحقيقة فان نظرية باخوفن حول حق الام هي اكتشاف جديد كما اثبتت ذلك الدراسات الاثنولوجية اللاحقة من بعده خصوصا بعد ان برهن مورجان L. Morgan على صحة نظرية باخوفن في دراسته حول الاروكيزن في كتابه Ancient Society الذي صدر في لندن عام ١٨٧٧ واثباته لانتسابهم

---

(٤٣) انظر Engels, F., Ursprung der Familie, S. 12—14, Berlin 1970

(٤٤) انظر Mühlmann, W., Ethnien, Kulturen, S. 217-218, Neuwied 1964

(٤٥) Ibid, S. 218

في خط الام[٤٦] . كما تأثر بباخوفن لودفيج كلاجس Klages في كتابه « الفكر عدو الروح » Der Geist als Widersacher der Seele ودافع عن نظرية حق الام دفاعا حارا[٤٧] .

ان نظرية باخوفن كانت قد فتحت الطريق امام البحوث الاثنوغرافية والاثنولوجية وذلك بألقائها الضوء على مرحلة حق الام وساعدت في تطوير البحوث التي دارت حول تلك المرحلة المبهمة من تاريخ الانسانية القديم ، حيث كانت لافكار باخوفن « اهمية كبيرة في تشخيص مرحلة حضارية بكاملها »[٤٨] . ومن جهة اخرى فقد حدث رد فعل قوي ضد نظرية باخوفن وظهر ذلك في النقد الشديد من قبل ياكوب بورخارت حول رموز القبور . ففي رسائل بورخارت الى فوجلاين عام ١٨٦٦ اعتبر بورخارت اراء باخوفن بانها اساطير فاسدة تماما ولا يقف بجانبها احد[٤٩] .وكذلك انتقادات فولفجانج فيليب W. Philipp اللاذعة في كتابه Weiberwertung oder Mutterrecht? الذي صدر عام ١٩٤٢ حيث اعتبر بناء بحثه غير متكامل لعدم وضوح افكاره وضعف تسلسلها . وان نفس التحولات الثلاثية الهيكلية : Hegelianische Dreitakte استباحة الانثى في فترة الاباحية ، ثأر الانثى في وقت تسلطها، ونظام الابوة ، لم يكن سوى ترجمة غير موفقة للكاتب الكلاسيكي كليراخ فون سولوي Klearach Von Soloi

اما عالم الاجتماع الهولندي شتاينميتز Steinmetz فقد كان حكمه على كتاب باخوفن « حق الام » موفقا حيث قال : « ان هذا الكتاب الغريب

---

(٤٦) انظر Sellnow, S. 40

(٤٧) انظر Mühlmann, S. 216

(٤٨) Ibid, S. 215

(٤٩) Ibid, S. 216

(٥٠) Ibid, S. 216

هو اصيل في بابة ، وهو بالتأكيد كان قد كسر الطوق • انه معلم عظيم ، الا انه بالتأكيد غير علمي »[٥١] •

ان نظرية باخوفن حول حق الام كمرحلة تشمل كل المجتمعات الانسانية لم تعد يوثق بها ، لان هناك بالطبع مجتمعات تتبع خط الام في نسبها ، وهي منتشرة في اجزاء من العالم ، ولكن على المرء ان لا يعمم مثل هذه الفرضية على جميع المجتمعات ، لانه لابد من توفر شروط معينة في هذا النظام • ومن الضروري ان يتوفر نوع من تبادل الادوار الاجتماعية بين الرجال • ففي مكان الاب ، الذي يقوم بدوره القيادي في العائلة المعروفة الان في نظام الابوة ، يقوم اخو الام (الخال) بذلك الدور في نظام الانتساب في خط الام ، وترتبط بهذا النظام عادة تبادل العلاقات والادوار في المؤسسات الاجتماعية التي يقوم بها الخال تجاه ابناء اخته وعلى المرء ان يلاحظ الاختلاف ، علاوة على خـــط الانتساب ، في الارث ، وحقوق الالقاب ، والاحترام ، والسلطة الحقيقية ، لان القرابة ربما تحدد عن طريق الانتساب في خط الام ، الا انه في نفس الوقت ، تكون قيادة العشيرة في خط الانتساب الى الاب[٥٢] •

وقد اثبتت المعلومات الاثنوغرافية ان هناك عدد قليل فقط من المجتمعات التي يسود فيها نظام حق الام ، وهي نقاط في بحر واسع • كما ان الوقائـع التاريخية للعهود القديمة تؤكد ندرة هذه الشعوب التي تتمثل فيها خصائص نظام حق الام • ففي فترة ما قبل الحضارة الهيلينية ظهرت هذه الخصائـص عند قبائل كاريز وكوكونز وبيلستجير والليكيير • اما في العصر الحديث فتوجد مثل هذه القبائل في افريقا ، على سواحل ساحل العاج الذهبي وفي الكونغو

---

(٥١) Ibid, S. 217

(٥٢) Ibid, S. 222

بين قبائل سمبيزي ، وفي شمال اثيوبيا . وكذلك في الهند ، في جنوب منطقة كيرالا . وهي مجتمعات يسود فها نظام الانتساب الى الام ، الا ان هذه النقاط في هذا البحر الواسع هي حالات نادرة كما يقول ميلمن[٥٣] . وفي مقدمة ناشر كتاب باخوفن حق الام يقول مويلي : « لقد اصبحت فكرة حق الام اليوم اكثر تفهما من قبل في المجال العلمي ، الا ان هذه الفكرة اصبحت اليوم اكثر اشكالا مما مضى »[٥٤] .

ان ما يستحقه باخوفن هو كونه اول من بدأ في كتابة تاريخ العائلة واول من وضع اصطلاح حق الام وكونه الاول الذي وضع يده على صميم المشكلة التي اخذها علماء الاثنولوجيا من بعده .

---

(٥٣) Ibid, S. 223

(٥٤) Meuli, Im Nachwort Zum Mutterrecht, S. 1011

المصادر الاجنبية

1. Bachofen, J. J., Das Mutterrecht, (1861), Basil 1948
2. Bachofen, J. J., Der Mythos von Orient und Okzident, hesg: von Schröter, Basil 1926
3. Bachofen, J. J., Urreligion und antike Symbole, (1859), hesg: von C. Bernolli, 1926
4. Bachofen, J. J., Versuch über die Gräber der Alten Urreligion und antike Symbole, 1952
5. Engels, F., Der Ursprung der Familie, des privateigentum und des staats, Berlin 1970 .
6. Evans-pritchard; Social Anthropology, London 1952
7. Meuli; Nachwort Zum Mutterrecht, Basil 1948
8. Mühlmann, W., Rassen, Ethnien, Kultnren, Neuwied und Berlin, 1964 .
9. Philosophisches Wörterbuch, Körner Verlag, Stuttgartt, 1965.
10. Sellnow, J., Grundprinzipien einer periodisierung der Urgeschichte, Berlin 1961.
11. Thomson; G.; Frühgeschichte Grichenland und der Ägäis, Bd. I., Berlin 1969.